تلازم المنطق والجمال
في خطبة الجهاد للإمام علي (ع)
قراءة معاصرة

أ.د. حامد ناصر الظالمي

جامعة البصرة

الخطبة:

((أما بعدُ: فإنّ الجهادَ بابٌ من أبواب الجنّة ، فتحهُ اللهُ لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرعُ الله الحصينة ، وجُنَّته الوثيقة فمَنْ تركهُ رغبةً عنه ألبسهُ اللهُ ثوبَ الذُلِّ ، وَشَمِلهُ البلاءُ ، ودَّيث بالصغار والقماءة ، وضُرِبَ على قلبه بالأَسداد ، وأُديل الحقَّ منه بتضييع الجهاد ، وسِيمَ الخَسف ومُنِعَ النَّصَف .

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسِرَّاً وإعلاناً وقُلتُ لكم. أغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزي قومٌ قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلوا ، فتواكَلتم وتخاذلتم حتى شُنَّت الغاراتُ عليكم ، ومُلكت عليكم الأوطان .

وهذا أخو غامد قد وردت خيلهُ الأنبار ، وقد قَتَلَ حسان بن حسان البكري ، وأزالَ خيلكم عن مسالحها ، وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخلُ على المرأة المسلمة والأخرى المُعاهدة ، فينتزع حِجلها وقُلبها وقلائدها ورُعُثها ، ما تمتنع عنه إلاّ بالاسترجاع والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرين ، ما نالَ رجلاً منهم كلمٌ ، ولا أُريق لهم دم ، فلو أنَّ أمرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً ، بل كان به عندي جديراً .

فيا عجباً – والله – يُميت القلبَ ويجلب الهمّ ، اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم! فقبحاً لكم وتَرحاً ، حين صرتم غرضاً يُرمى : يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزّونَ ولا تَغزون ، ويُعصى اللهُ وترضون .

فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم : هذه حَمّارة القيظ ، أمهلنا يسبِّخ عنّا الحرّ ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم : هذه صَبَّارة القرّ ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد: كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ . فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفِرّون ؟ فأنتم والله من السيفِ أَفرّ !

يا أشباه الرجال ولا رجال ! حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال ، لوددتُ أني لم أّركم ولم أعرفكم ! معرفةً – والله – جَرَّت ندماً ، وأعقبت سدماً ، قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً ، وجرّعتموني نُغَب التهمّام أنفاساً ، وأفسدتم عليّ رأيي

بالعِصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش : إنّ ابن أبي طالب رجلٌ شجاعٌ ، ولكن لا عِلمَ لهُ بالحرب .

لله أبوهم ! وهل أحدٌ منهم أشدّ لها مراساً ، وأقدم فيهاً مقاماً مني ! لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين ، وهأنذا قد ذرفتُ على الستين! ولكن لا رأيَ لمَنْ لا يُطاع))(١).

* * *

جاءت هذه الخطبة المسمّاة بـ(خطبة الجهاد) للإمام علي (ع) بعد حادثة مقتل حسان بن حسان البكري في الأنبار على يد سفيان الغامدي أحد أتباع معاوية ، إذ ذكره الإمام بقوله ((وهذا أخو غامد وقد وردت خيلهُ الأنبار)) ، والأنبار هي بلدة عراقية مجاورة لحدود الشام وفي أقصى غرب العراق ، وأن الإمام علي (ع) قد انسحب من معركة صِفين بعد أن كاد يُنهي المعركة لصالحه ، لولا خدعة رفع المصاحف ، وصِفين كما يقول ياقوت الحموي : ((بكسرتين وتشديد الفاء... وهو موضع الرقَّة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقّة وبالس ، وكانت وقعة صِفّين بين علي (رض) ومعاوية في سنة ٣٧هـ في غرّة صفر وقُتِلَ في الحرب بينهم سبعون ألفاً منهم من أصحاب علي خمسة وعشرون ألفاً ومن أصحاب معاوية خمسة وأربعون ألفاً ، وقُتِلَ مع علي خمسة وعشرون صحابياً بدرياً ، وكانت مدة المقام بصِفّين مائة يوم وعشرة أيام ، وكانت الوقائع تسعين وقعة))(٢).

إذاً في الرقّة أو في القرب منها كانت المعركة عام ٣٧هـ ، وهي بعد ١٤٠٠ سنة، أي (الرقّة) ، عاصمة (داعش) الآن ، وتذكّرنا لفظة (غامد) ذات الحروف الأربعة بلفظة (داعش)، وهما كذلك على وزن (فاعل) ، وتذكرنا غارة سفيان (أخو غامد) على الأنبار ومقتل حسان البكري بالاتجاه نفسه الذي قَدِمت منه داعش من الرقّة وحتى حدود العراق مع الشام . وتذكرنا حادثة تعرّض سفيان الغامدي بما يجري الآن . فهل كان الإمام علي(ع) يوجس في نفسه خيفة من تلك الحدود من (صِفّين) سابقاً و(الرقّة) حالياً ومن (غامد) سابقاً و(داعش) حالياً..؟ وهل توقّع أن الهجوم سيكون من تلك المناطق على ولايته.؟ وهو الأمر الذي كان يحذّر منه مراراً وتكراراً ؟، ولكن لا رأيَ لمن لا يُطاع كما

يقول !. وهل تلك الغارات هي التي أضعفت حكومته مروراً بتخاذل جيشه المُريب أمام (غامد + داعش) حتى وصل حالة مَنْ يتجرّع قلبه قيحاً.؟

وهذه الخطبة هي من أواخر خطبه عليه السلام ، فهي كخطبة الوداع .

هل كان الإمام يَتَخيَّل أنه سيحدث لعراق المستقبل ما حدث في الأمس ، وأن جهة الخطر واحدة..؟ هل هو علمٌ بالغيب ، أم خبرة قائد وحكيم دخل الحرب ولم يبلغ العشرين، فطاول فيها أكثر من أربعين سنة ؟

هذه الخطبة عَنوَنَها الرضيّ بـ(خطبة الجهاد) ؛ لأن الإمام علي (ع) لم يطلق أيّ اسم على خطبه ، وهي من خطب الحرب وهي موجَزَة ، وإيجازها هنا يأتي لمقتضى الحال ، فمقام الحرب يقتضي ذلك . وهي لم تبدأ بالبسملة والحمد لله والصلاة على النبي(ص) ؛ لأن المقام لا يحتمل الإطالة ، فضلاً عن كونها خطبة توبيخ وتقريع ، فلا تحتاج إلى البدء بالسلام كما لم تبدأ سورة البراءة بالبسملة ؛ فالمقام يتطلب الشدة والإنذار. ومن الطبيعي أن نتوقع أن جمهور الخطبة متجانس ومن فئة واحدة ، وهم مقاتلون في ساحة المعركة لا نساءَ ولا أطفال معهم وهم بأعمار متقاربة .

نستطيع تقسيم بنية الخطبة إلى ثلاثة أقسام:

١.مقدمة، (وهي من بداية كلامه (ع) وحتى قوله (ومُنَع النَّصف).

٢.العرض، (ويبدأ من قوله (ألا وإني...) حتى قوله (فأنتم والله من السيف أفرّ...)، وفي هذا القسم يبرز الحجاج والتفنيد.

٣.الخاتمة، ، وتبدأ من قوله (يا أشباه الرجال...) وحتى نهاية الخطبة وتنتهي بالاستنتاج (لا رأي لمَنْ لا يُطاع).

يبدأ الإمام (ع) خطبته بجعله الجهاد باباً من أبواب الجنة ، وهذا الإخبار هو تأكيد منه (ع) فهو لم يَقل (كأنه باب) أو هو (مثل باب) بل هو أحد الأبواب ليقينه بذلك، ولكونه باباً ، فقد فتحه الله لخاصّة أوليائه ، إذاً هو مدخل من مداخل الجنة ، بل هو (لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجُنّته الوثيقة) فهو (اللباس ، والدرع ، والجُنَّة) يحمي صاحبه فيتدرّع به من شرَّ أعدائه .

وقوله (باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه) يتناص مع قوله تعالى ((فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة)(٣)، فالتفضيل في الآية تخصيص ، أي جعلهم من خاصة الأولياء . أما قوله (ولباس التقوى) فهو يتناص مع قوله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير)(٤). وقوله (وجُنَّته الوثيقة) يتناص مع قوله تعالى (واتخذوا أيمانهم جُنَّةً فصدّوا عن سبيل الله)(٥).

إذاً للجهاد ميّزات ثلاث هي:

١.هو لباس (التقوى).

٢.هو درع (الله).

٣.هو جُنَّة (الله).

هذه الجمل القصيرة المتتالية في الإخبار ، وتناصّها مع القرآن الكريم كانت خير مقدمة للخطبة ، فكأنه قد بدأ الخطبة بآياتٍ من القرآن الكريم ، ولكنها كانت بلغته وأسلوبه، فبداية الخطبة أفادت من تناصها مع القرآن الكريم لتثبيت هذا المبدأ وهو أهمية الجهاد . وهذا يدلّ على تشبّع الروح العلوية بالنصّ القرآني واستحضاره في كلّ لحظة .

وفي المقابل فإنّ مَنْ يترك الجهاد ينزع الله عنه (اللباس ، والدرع والجُنَّة) فيتركه بـ(ثوب الذلّ ويشمله البلاء ويُداث بالصَّغار والقماءة ويضرب على قلبه بالأسداد...) إذ يسقط عنه كل ما يحتمي به المجاهد ، فيكون عِرضةً أو (غرضاً) لتلك الأحداث والمصائب فقد سُلبت منه أدوات المناعة والحماية الخارجية ، وكذلك ضعفت مناعته الداخلية فقد تحجّر عقله وقلبه ، إذ جُعل على قلبه أسداداً. وعقله مُنع النَّصَف والحكمة والبصيرة ، فالأسداد هي المغاليق الخاتمة على القلب ، ويذكّرنا ذلك بقوله تعالى ((وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون))(٦).

وهكذا ، فترك هذا الغرض يجعل صاحبه مكشوفاً لأعدائه دون أية ممانعة تقيه تلك الشرور ، بل وتجعل قلبه مختوماً بالعصيان ، وعقله فاقداً للبصيرة وتغلفه طبقات الأدران والأسداد ، ولم يقل هنا أغلق قلبه بالأسداد بل (ضُرب) على قلبه ، فاللفظة تشير كذلك إلى القسوة بالضرب أي بضرب القلب .

هذه بداية المقابلات الفكرية والفنية في كلامه (ع) وتمييزه بين الحالين (المجاهد) و(تارك الجهاد) . وتستمر تلك المقابلات الجميلة ، ويأخذ التشبيه التمثيلي دوره هنا ، فالمقام يقتضي ذلك لأنه مقام (حرب) ، فهو يحتاج للتجسيم والتشخيص لإدراك الصورة وتقريب المعنى وإقامة الحجّة على أتباعه .

وهنا نجد بُعداً تقابلياً آخر ، فهو عند وصفه الجهاد كانت جمله إسميّة تدلّ على الثبوت والوضوح ، فهي إخبار لا تبدّل فيها ولا تغيّر:

١.إنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة .

٢.هو لباس التقوى .

٣.هو درع الله الحصينة .

٤.هو جُنّته الوثيقة .

هذه الجمل الإسمية الأربع تأتي بعدها مجموعة من الجمل الفعلية ذات الطبيعة المُتغيِّرة والمتحرِّكة وعددها أكثر لأنها تصف مصائب عديدة ستقع لتارك الجهاد ، فمَنْ تركه :

١. ألبسه الله ثوبَ الذل (لبس).

٢. شَمله البلاء (شمل).

٣. دُيِّثَ بالصغار والقماءة (دُيِّث).

٤. ضُرب على قلبه بالأسداد (ضرب).

٥. أُديل الحقَّ منه (أُديل).

٦. سِيمَ الخَسف (سام).

٧. ومُنِعَ النّصَف (مَنَع).

وهكذا تكثر الأفعال هنا والحوادث بمجرد الترك ، وأن الفاعل في بعضها مجهول، فقد تأتيه المصائب من أية جهة كانت إذ لم تُحدد جهة الفاعل فهي مجهولة فهي مصائب عديدة تأتي من فاعلين عديدين مجهولين لم يتوقعهم هذا التارك . ولكن المجاهد يَفتح (الله) له باباً من أبواب الجنة وهو يجاهد في الأرض والله يفتح له الباب في السماء ،

وفاتحُ الباب هو (الله) عزّ وجلّ ولم يقُل (يُفتَح له باب من أبواب الجنة) بل أسند الفتح لله عزّ وجلّ ، وما أجمل الشيء أن يأتي بأمره تعالى ومباشرته .

جاء وصف الجهاد والإخبار عنه بالجمل الإسمية الثابتة ، وبالتشبيه البليغ الذي حُذِفت أداته ووجه الشبه فأصبح كالمؤكد اللازم . أما ما يقابل ذلك فقد بدأه الإمام (ع) بالشرط عند قوله (فمَن تركه...) وكان جوابه هنا دون أدوات تفيد التراخي أو التريث أو الانتظار أو الاستقبال بل جاءت كالآتي:

فمَن تركه ...

ألبسه الله ثوب الذل

وشَمِله البلاء

ودُيِّث بالصغار والقماءة

وضُرِبَ على قلبه بالأسداد

وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد

وسِيم الخَسف

ومُنِعَ النَّصَف

تأتي هذه الأفعال جواباً على التارك ودفعةً واحدة دون تريث بل جميعها ومتعاقبة بعد فعل الترك مباشرةً . وهذا يدلّ على تسارع الأحداث والوقائع دون فاصلٍ زمني أو مكاني ودون أولويات بل جميعاً فهي نتيجة لمسبب واحد هو الترك .

ونلحظ صورة صوتية معبرة في قوله (تضييع) فهذه الياء المكررة المتتالية تُشير إلى الميوعة والتشتت والتسرّب وهو فعل يناسب حالة تارك الجهاد ، فهو يعيش حالة (ضياع ، ميوعة ، تشتت ، تسرّب) إذ يختلف الأمر لو قال عليه السلام (أضاع الجهاد) فتوالي الياء أعطى صورة صوتية معبرة لهذا المشهد .

وكذلك الحال في وصف الجهاد ، فالكلمة تختلف في قوتها ما بين مطلع الفقرة والخاتمة ، ففي المطلع نجد مهابة للجهاد فهو (باب من أبواب الجنة ...) ولكن في تركه تأتي عبارة توحي بذهاب تلك المهابة وهي قوله (تضييع الجهاد) . فكأن الجهاد إنْ تلتزم

بـه يرتفـع شـأنه وشـأن المجاهـد ، وإنْ فرّط بـه تاركـه فهـو (تمييـع) لـه وتقليل لشـأنه . وهكذا فقد كان الإمام (ع) في هذه المقدمة واعظاً ومُرغّباً وناصحاً . وهو أمرٌ لابد منه في هذه المقدمة .

وعندما نستعرض القسم الثاني من الخطبة والذي يبدأ كما قلنا من قوله (ألا وإني قد دعوتكم ...) نجد فكرة التقابل مستمرة هنا بوجود الطباق والتوازي ، إذ يقول:

ليلاً نهاراً

سراً إعلاناً

أغزوهم يغزوهم

فهنا الطباق واضح بين (ليل ، نهار) ، (سراً ، إعلاناً) والتوافق بين (ليل ، سر) (نهار، إعلان) ، فقد قدّم الليل على النهار والسر على الإعلان محاولةً منه في إلقاء الحجّة، وهو يشعرنا بالإلحاح في هذا الموضوع لا انقطاع في ذلك .

وهنا تقابل آخر .

(ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً)

مع (حتى شُنَّت عليكم الغارات ومُلكت عليكم الأوطان)

ونستطيع جدولتها كالآتي:

ليلاً وسراً ← شُنّت عليكم الغارات

نهاراً وإعلاناً ← مُلكت عليكم الأوطان

فكأنما الغارات شُنّت عليكم ليلاً وسراً حتى أصبحتم نهاراً ، فإذا أوطانكم تملكها الأعداء . لقد شُنت عليكم الغارات وأنتم لا تشعرون فأصبحتم مُلكاً لغيركم ، فالحدث هنا مترابط (فشُنت) جاءت بعدها (ومُلكت) المعطوفة عليها والمباشرة بعدها وهذا يعني أن لا يوجد دفاع ، فقد توالا الفعلان وتعاقبا دون فاصل زمني أو تراخي ، فمجرد أن شُنت الغارات مُلكت الأوطان فلم يقل (ثم مُلكت الأوطان) ، وهذا ما يشير إلى سرعة الدخول وسقوط المناطق دون مقاومة بل الأمر كان سريعاً وخاطفاً .

وفي الجملة التالية حاجج الإمام علي (ع) تاركي الجهاد فقال (قلتُ : لكم أغزوهم... فتواكلتم وتخاذلتم) فالأمر مقصود إذ أكَّدَ التواكل بالتخاذل بعد فاء الاستئناف والتخاذل جاء معطوفاً ومشتركاً مع التواكل ، وهذا هو التعمّد بعينه في تخاذل هؤلاء القوم الذين تركوا مواقعهم للعدو دون أية مقاومة تُذكر مما أدّى إلى سقوط تلك المناطق بيد العدو بسرعة خاطفة نتيجة هذا التواكل والتخاذل .

وبعد ذلك يقول (هذا أخو غامد = داعش قد وردت خيله الأنبار ... وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المُعاهِدة ، فينتزع حِجلها وقُلبها وقلائدها ورُعثَها ...) ولعل كلمة المُعاهِدة تشير إلى المرأة غير المسلمة من (المسيحيات والإيزيديات...) في عصرنا . والواو هنا للجمع ، فالمسلمة والمُعاهدة هما نساء أنّى كان الانتماء فهنّ عند علي (ع) متساويات في حقوقهن عليه وقد سُلبنَ مع المسلمات وقد استقرّ (أخو غامد = داعش) فترة من الزمن لأنه بعد شن الغارة واحتلال الوطن جرى السلب والنهب ، فقال الإمام علي (ع) (ثم انصرفوا.. فثمّ تفيد التراخي والتريث والتأخر...

ويأتي التقابل مرةً أخرى في قوله :

يميت القلب

ويجلب الهم

فهي مقابلة ما بين الموت وهو الانقطاع وما بين الجلب وهو الاستمرار والتواصل، فعلى الرغم من انقطاع القلب عن الحياة إلا أن الهم مستمر . ونجد تقابلاً آخر في قوله:

١. اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ← تفرقكم عن حقكم

٢. يُغار عليكم ← لا تغيرون

٣. تُغزَون ← لا تغزون

٤. يُعصى الله ← ترضون

فالجملة الأولى إسمية وهي تشير إلى الثبوت والتأكيد وإن كان أولئك على باطل ويقابلها قوله (تفرّقكم عن حقكم) فهو لم يقل (تركككم حقكم) بل أراد أن يصور الأمر وكأنه هروب عن الحق . فالحق هنا كشخصٍ تفَرَّقت وهربت عنه الجماعة وتفككت وهو عكس

الأول ، فالباطل كأنما شخص تَجمَّع عليه أصحابه . فهو لم يرد ترك الحق فقط بل الهروب منه والابتعاد عنه وكأنه شخص مجذوم تهرب منه الناس .

أما الجمل الست الأخرى التي تبدأ بالفعل المبني للمجهول في الثلاث الأولى والمضارع في الثلاث الأخرى إذ يقول:

١. يُغار .

٢. تُغزَون.

٣. يُعصى.

فكأنما الفاعل غير معروف وغير محدد ومختلف عليه ولا تعرف جهته ورغم ذلك فأنتم:

١.لا تغيرون.

٢. لا تغزون.

٣. ترضون.

الفعل ترضون جاء في آخر كلامه يُشير إلى احتمالين:

١. يُعصى الله وأنتم ترضون.

٢. أنتم ترضون على كل ما جرى من أفعال سابقة أي (اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم ، وأن يُغار عليكم، وأن تُغزَون وأن يُعصى الله...) . والفعل هنا بمبادرة من العدو ، فالإغارة والغزو والعصيان هو مَنْ يفعلها أولاً وأنتم لا إرادة لكم، وهذه الأفعال جاءت مضارعة وسريعة فهي غارة وغزوة وعصيان جمعها حرف العطف مما يشير إلى سرعة تواتر الأحداث وأنتم لا فعلَ لكم .

بعد ذلك يتألم الإمام إذ يقول (فقبحاً لكم وترحاً) ففي هاتين الكلمتين من المرارة ما فيهما ، فصوت الحاء دليل هنا على بُحة صوته عليه السلام من النداء والطلب والأمر لقومه ، لقد بُحَّ صوته دون جواب ، وصوت الحاء هنا يشكل صورة سمعية لحالته عليه السلام ، وإن عبارة (فقبحاً لكم وترحاً) تأتي مباشرةً بعد (اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم فقبحاً لكم وترحاً) إذ لم يصبر عليه السلام لإكمال بقية كلامه فبادر

بهذه الجملة التي خرجت منه بهذه الجملة الاستئنافية المبدوءة بالفاء وبسرعة ، تقريعاً لتاركي الجهاد ، فقد أصبحوا (غرضاً يُرمى) والغرض هنا تقريع جديد لهم ، فهو لم يقل صرتم جيشاً يُرمى أو جُنداً بل غرض أي هدف يُرمى دون أي رد منه ، فهم أجساد خاوية ليس لها (لباس تقوى ولا درع وجُنّة) وعلى قلبهم (أسداد) فأصبحوا أشباه رجال لهم شكل الرجال فقط من الخارج بل وأصبحوا غرضاً يُرمى والغرض هو الشاخص الذي يُضرب بالسهام عند التعلّم ، وهو ما يُوضع في المزارع على شكل إنسان لإخافة الطير ، فقد مُسِخوا بعد تركهم الجهاد فأصبحوا يتلقون الضربات من جميع الجهات إذ لم يُحدد الرامي. بل قال (يُرمى) فهم أشباه رجال وهم لا واقٍ يقيهم ، وهم كالغرض ، وهم ممسوخون ؛ لذلك جاء فعل التحول والصيرورة (فصرتم غرضاً يُرمى)، وهذا التحول من الرجولة إلى هذا الشيء المسخ جاء بسبب ترك الجهاد مما أدّى إلى نزع (اللباس والدرع والجُنّة) عنهم فصاروا غرضاً يُرمى . فما كان يسترهم من ربّ العزّة قد سقط عنهم ، فلباس التقوى تبدّل إلى لباس الذلّ ودرع الله تبدل والجُنّة كذلك. فخرجوا من حمايته عزّ وجل فصاروا غرضاً لكل مَنْ هَبَّ ودَبّ وأصبحوا أشباه رجال ولا رجال، والنفي هنا لجنس الرجال تماماً فهم قد ضُربت قلوبهم بالأسداد فلا روح لها فهم على شكل رجال فقط لا روح لهم .

ويستمر الإمام علي (ع) بفن المقابلة الرائع في قوله:

أيام الحر الشتاء

حمّارة القيظ حبّارة القرّ

يسبِّخ عنا الحر ينسلخ عنا البرد

الحر القرّ

فهذه المقابلات قد ولّدت توازناً جميلاً في هذا المقطع ، بل ويتبيّن أنّ هذا الأمر كثيراً ما يحدث بين الإمام (ع) وبينهم ، فتجد صوت الراء وصورته السمعية قد أَضفَتْ جواً من التكرار لهذه المجادلة الفصلية ما بين الحر والبرد ، ولعل في ختمه لهذه الفقرة بقوله (كل هذا فرار من الحر والقر فأنتم والله من السيف أفرّ...) نجده قد أفاد من صوت

الراء كصورة سمعية لكثرة فرارهم ، فهم يفرّون من الحر ويفرّون من القر ومن السيف . وهنا استعار الإمام (ع) إحدى لوازم الجيش فجعل الحر والقر كإنما جيشٌ يَفرّون منه ، فهي النتيجة التي وصلوا إليها إنهم فرّوا من الحر والقر والسيف لأنهم أشباه رجال لذلك فلا عزيمة لهم. وهم من الإشاعة وظروف الحرب أكثر فراراً لا سيما عندما تعرض لهم (أخو غامد = داعش) .

وحسب تقسيمنا تأتي الخاتمة . كما قلنا وتبدأ بقوله (يا أشباه الرجال...) لكونها – (أي الخاتمة – هي نتيجة لما سبق أن دعا علي (ع) على تاركي الجهاد بقوله (قاتلكم الله)، فهذه الكلمة تعبر عن غضبه الشديد وعن نفوره منهم تماماً ، بل هي دعوة إمام الحق عليه السلام وهو معصوم حتى قال (لقد ملأتم قلبي قيحاً) فالقاف صوت يوحي بالقيء والخُرّاج، فهو ينزف القيح ، لأنهم لم يبقوا مكاناً في قلبه لغير هذا المرض . ومن المعروف أن القلب عضلة قوية دائمة الحركة لا يتولّد فيها القيح ولكن كلام الإمام (ع) هو للمبالغة لما صار عليه حاله ، إذ استعار للقلب صفة الوعاء الذي خُتِمَ بالقيح ، وجعل من صدره وعاءً شحنوه بالغيظ وصوت الغين مقارب للقاف في المخرج . إذ يوحي بالقرف والاشمئزاز والقيء والحنق والسخط فتوالت الأصوات (الحاء والقاف والغين) هنا لتكون صورة سمعية عن حالته عليه السلام. وتكرار الراء في (جرَّعتموني نُغب التهمام) يُفيد هنا تكرار الحالة مع قساوة المشهد ، وسُقم الشراب . والنغب هو إبتلاع الريق وهو الجرعة(٧)، أما التجرّع هو بلع الماء كُرهاً(٨)، فالنغب هو التَجرُّع المادي والتَجرّع هو معنوي للهموم ، إذ كان التَجرُّع هماً ونُغباً .

ولزيادة المبالغة أفاد عليه السلام من أفعل التفضيل عند كلامه عن مراسه للحرب إذ قال (وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مراساً ، وأقدم فيها مقاماً مني) نجد قد أكد الكلام بـ(أشدّ ، أقدم) والتمييز هنا مراساً ومقاماً ، مما يدل على يقينه بتفوقه وشجاعته .

هذا الترابط المنطقي بين أجزاء الخطبة قد جعلها نصاً واحداً ونسيجاً يكمل بعضه بعضاً ، فالجهاد (درع الله الحصينة... فمَنْ تركه... كان من السيف أفرّ) إذ بدأ الكلام بالدرع التي تحمي الإنسان في الحرب وإن خلع الدرع يؤدي إلى الفرار من السيف ، فهذا

التعالق الجميل ما بين بداية الخطبة ونهايتها جعلها ذات وحدة موضوعية وفنية رائعة وذات نسيج متكامل خلافاً للقصيدة العربية التي فقدت وحدتها الموضوعية والفنية والترابطية إذ كانت مجموعة نصوص مفككة ذات موضوعات متعددة .

وعلى الرغم من صغر هذه الخطبة ، فقد توافرت على مجموعة من الأساليب اللغوية والبلاغية من (قسم ، وتعجب ، ونداء ، وشرط ، واستفهام ، وتفضيل وأمر ، وجناس ، وطباق ، وسجع). بل وتضَمَّنت معاني (لآيات قرآنية ، وحِكَم ، فضلاً عن صور سمعية صوتية وبلاغية من تشبيه واستعارة ، وتوازن في الكلام ومقابلة ، فكل ذلك قد جعل هذه الخطبة قطعة لغوية حجاجية عالية الدقة . ومعبرة عن حالته وألمه القديم في قلبه الذي بدأ يتداعى ويخرج بألفاظ وشقشقات . لذلك نجده لاسيما في أواخر حياته عليه السلام تزداد عنده الخطب المعبّرة عن خيبة أمله وكثيراً ما كان يردد هذا الكلام أو قريباً منه . ففي خطبة له بعد غزوة النعمان بن بشير الأنصاري (من أتباع معاوية) لبلدة عين التمر قال الإمام (ع) (مُنيتُ بمَنْ لا يُطيع إذا أَمرتُ ، ولا يُجيبُ إذا دَعَوتُ ، لا أبا لكُم ما تنتظرونَ بنصرِكم ربَّكُم ؟ أما دينٌ يجمعكُم ، ولا حميّة تَحمِشكُم ! أقومُ فيكم مُستصرخاً، وأُناديكُم مُتغوّثاً ، فلا تَسمعون لي قولاً ، ولا تُطيعون لي أمراً ، حتى تكشَّفَ الأُمورُ عن عواقب المساءة ، فما يُدرَكُ بكم ثارٌ ، ولا يُبلَغُ بكم مرامٌ ، دَعوتكُم إلى نصر إخوانكم ، فجَرجَرتُم جَرجَرة الجَمَل الأَسَرّ ، وتثاقلتم تثاقُل النَّضوِ الأدبر ، ثُمَّ خَرَجَ إليّ منكُم جُنيدٌ ، مُتذائِبٌ ضعيفٌ ، كأنما يُساقون إلى الموتِ وهم يَنظُرون)(٩).

ويتكرر المشهد بعد غارة الضحاك بن قيس صاحب معاوية على بعض المناطق إذ يقول الإمام (ع):

((أيّها الناس المُجتمعةُ أَبدانهُم ، المُختلِفةُ أهواؤُهُم ، كلامُكم يُوهي الصُمَّ الصِلابَ، وفِعلُكم يُطمعُ فيكم الأعداء تقولون في المجالس كيت وكيت ، فإذا جاء القتال قُلتُم حِيدي حياد....)(١٠). وهذه الخطبة طويلة . وخطبة له أخرى بعد حرب الخوارج يقول فيها:

((أُفٍّ لكم ، لقد سَئِمتُ عِتابكُم ! أرضيتُم بالحياة الدُنيا من الآخرة عِوضاً ؟ وبالذُّلّ من العِزّ خلفاً ، إذا دعوتكُم إلى جهادِ عَدوّكم ، دارت أَعيُنكم ، كأنكم من الموتِ في غَمرَةٍ ، ومن الذُّهُولِ في سكرةٍ...)(١١)، والخطبة طويلة كذلك.

الهوامش:

(١) نهج البلاغة، وهو ما اختاره الشريف الرضي، مؤسسة الرافد للمطبوعات، حققه الشيخ قيس بهجت العطار، ط١، ٢٠١٠،، محقق على أربع نسخ خطية، ص٨٤ – ٨٧. خطبة رقم ٢٧.

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ١٩٥/٣.

(٣) سورة النساء ، الآية ٩٥.

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٢٦.

(٥) سورة المجادلة ، الآية ١٦ . وسورة المنافقون، الآية ٢.

(٦) سورة يس، الآية ٩.

(٧) ينظر لسان العرب، مادة نغب، ٤٤/٦، لابن منظور، تحقيق عبدالله علي الكبير، ط١، دار المعارف، د.ت.

(٨) ينظر لسان العرب، مادة جرع ٦٠/١.

(٩) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٩ ، ص٩٠.

(١٠) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٩، ص ٩٠.

(١١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٤، ص٩٦-٩٧.